الحياة ٤/٥/٩٣

19930509

أم تيسير
أم الموتى الأحياء

مؤخراً، منذ شهرين ونيف، ابتدا ذوو المخطوفين في لبنان جولة تحرك جديدة يعتقدونها حاسمة، لانها، ربما، الجولة الاخيرة. في هذه الجولة، الجارية الآن، عليهم ان يسابقوا الوقت الذي هو، في حسبانهم، وقت مخصص لنسيان الحرب وطي مسائلها. وما لا يجري استخلاصه منها، يبقى فيها. عليهم ان يسرعوا اذن، قبل ان تجري الحياة جريانها الطبيعي، بالحاضرين فيها فقط. وهم يقيسون درجات ما بلغته من العادية على قياس عودة المهجرين الذي تحققت لهم خطوات متسارعة في المدة الاخيرة. شيء ما يجعلهم يعتقدون ان قضيتهم توأم قضية المهجرين. وهم، اذ يرون هؤلاء يعودون الى قراهم ومناطقهم، يتوجسون من انغلاق ملفهم الذي لم يعد حاراً الا بينهم.

لكنهم يبدون هذه المرة قليلي الحيلة وقليلي القدرة على الحركة. لا تظاهرات في الشوارع، لا تحرك يعتد به لدى المسؤولين، لا وعود الخ.. هناك فقط اجتماعات دورية يعقدونها كل يوم جمعة. وما يزيد من ضعف حيلتهم هو شبه الإجتماع الثاني بالإجتماع الاول، والثالث بالثاني، هكذا، لانهم يبدأون في كل مرة من نقطة البداية اياها. كما يضعف حيلتهم، فوق ذلك، غياب يقينهم ببقاء اولادهم او اخوتهم او ازواجهم على قيد الحياة. ربما كان تحركهم الاخير هذا بلا طائل اذن، لكنهم على رغم ذلك، يزدادون عدداً في كل اجتماع تال. في الإجتماع الأخير غصت بهم غرفة المكتب في مار الياس اذ اتوا من اكثر مناطق لبنان، لتسجيل اسماء مفقوديهم، للمرة المئة ربما، لكن ايضاً من اجل ان يلتقوا الإعلاميين الذين يظهرونهم على شاشات التلفزيون وهم يقولون الكلام اياه، للمرة المئة ايضاً.

دقيقة واحدة او دقيقتان لكل امراة ما دام ان الرجال يؤثرون البقاء قريباً من الأبواب، لا في ارجاء القاعة الكبيرة ولا في الغرف. وامام الكاميرا الضخمة لا يذكرن الا معلومات سريعة في طليعتها اسماء مخطوفيهن واعمارهم وتاريخ اختطافهم ومكانه. وربما زادت امراة دقيقة على الوقت المعطى لها لتصف حالها في غياب ولديها الإثنين، ولتبكي ايضاً ليكون كلامها عن الما مصدقاً من السامعين. لكن، في اي حال، لا تزيد المراة على من سبقتها الا عدداً اضافيا، لانهن متساويات اولاً، ولانهن، ثانياً، يحتجن الى قوة لا يملكنها في محاولتهن بعث مشاعر السامعين من جديد، بعد انقضاء عشر سنوات على ظهورهن الاول على الشاشات.

لا يتميزن في المقابلات السريعة ولا تقول واحدتهن الا ما قالته الاخرى. كان عليّ اذن ان اتوجه، من بينهن، الى من تفوق الجميع فجيعة، اي الى من اختطف لها عدد اكبر. لكن المراة ذات الصور الاربع على صدرها، التي كانت التلفزيونات، في وقت ما من الثمانينات، تقف عندها، لم تات الى اي من الإجتماعات الاخيرة. وحين سالت عنها، من دون ان اذكر اسمها الذي لا اعرفه أرشدت الى امراة اخرى لم يسبق لي ان رايت صورتها من قبل، لكنها، في اي حال، فقدت هي ايضاً مخطوفين اربعة.

لم يسبق لها ان ظهرت على الشاشات. وفي الصحف لم تظهر لها الا صورة واحدة احتفظت بها، بعد ان اقتطعتها من الصحيفة، في البوم العائلة البالي الذي لا تزيد الصور فيه على العشرين. كانت تلك الصورة الوحيدة التي اضيفت الى الالبوم الذي، منذ ١٩٨٢ سنة اختطاف الاربعة، لم يزوّد بصورة جديدة. «لا يحسن ان نقف امام المصورين ونبتسم لهم»، قالت قاصدة نفسها ومن لم يختطف من اولادها، وابنها واولاد ابنها تيسير الذي تولت تربيتهم في غياب ابيهم. ثم ان الصور، اذ تؤخذ، تدل على وحدة ما قائمة بين المتحلقين فيها. بين الصور العشرين ست او خمس على الاقل تُظهر العائلة مجتمعة، العائلة الكبيرة ذات السبعة ابناء، لكن الواحدة. اما بعد ١٩٨٢ فقد تغير الحال اذ فقدت العائلة نصفها واضيفت اليها فروعها الذين هم اولاد الإبن الثلاثة ووالدة ام تيسير التي انضمت اليها بعد اختطاف الأب مع اولاده. لم تعد العائلة في الوحدة العائلية العادية. وفي بيت ام تيسير كان عليّ ان اسال كلاً من الاولاد المتحلقين حولي ابن من هو؟

ومن صور الالبوم القديمة طبعت ام تيسير نسخاً مكبرة للأب واولاده الثلاثة علقتها مؤطرة على الجدارين المتقابلين، صورتين على كل حائط. لم تفعل الشيء نفسه لابنتها التي قضت بقذيفة «ايام حرب عون»، اي بعد ثماني سنوات على اختطاف اولادها وزوجها. لا لأنه لا يحسن ان تعلق صورة ميتة على الجدار، انما لأن الإبنة تمزقت اشلاء من جراء القذيفة، ولم يعثر بين الانقاض والاطراف على ما يمكن تمييزه وجمعه في جسم واحد، وهذا ما تصوره الصور في العادة.

ثم ان قضية الإبنة القتيل موجودة في وعي ام تيسير وجوداً آخر منفصلاً عن قضية المخطوفين. فالى الصور الاربعة التي تحتفظ بها دائماً مغلفة بالنايلون، والتي كانت في السنوات الاولى التالية للإختطاف تعلقها على صدرها، كان عليها ان تضيف صورة الإبنة، مغلفة ايضاً، لكنها لم تفعل، ربما لحرصها ان تبقي كلاً من المسالتين منفصلة عن الاخرى. ثم انها، ان هي فعلت ذلك، تبدو كانها تشوش المطالبة المشتركة التي التقى حولها ذوو المخطوفين جميعهم. الامر الذي يضعف من المطالبة ويزيحها عن موضوعها.

ابقت المسالتين منفصلتين لديها، لا بد، تجمعهما في مكان ما في داخلها وان كانت لا تفصح عنه ولا تقوله. انها، اذن، ام المخطوفين وليست ام الإبنة القتيل. وحيث تقيم في المنطقة بين قصر صبري حمادة المهدم وشارع صبرا، المهدم ايضاً، لا يميزها كونها فقدت ابنة بالقصف ما دام ان كثيرين هناك اصابهم الشيء نفسه. حتى ان ابو وليد جبيلي، صاحب الدكان الذي سمته لي ام تيسير فيما هي تعين لي مكان بيتها، لم يستطع ارشادي الى البيت اذ لم يعرف من هي ام تيسير. ام المخطوفين، قلت له، فلم يعرفها ايضاً، في ذلك الحي المكتظ المزدحم باقوام كثيرين لا يعرف الناس بما نعتقد انه يعرفهم، فلكل منهم قصته وقضيته. على الحي سقطت اكثر اعداد القذائف خلال الحروب جميعها، اضافة الى حروب اخرى جرت خصيصاً له، كما ان مجزرة صبرا وشاتيلا التي جرت حوله امتدت ايضاً الى من فيه. «في صباح يوم الخميس، وكان الاولاد نياماً، جعلت امراة تصرخ انهم يذبحون الناس. لم اصدقها. لكن الاولاد، بعد ان افاقوا، ذهبوا الى هناك وعادوا مسرعين ليقولوا ان الجثث تملأ الطرقات».

ما كانت ام تيسير لتحفظ اسم ذلك اليوم لو لم يعقبه اليوم التالي، ذو التسميات الكثيرة: «الجمعة في ١٧ ايلول (سبتمبر) ١٩٨٢ الساعة الرابعة بعد الظهر» هكذا كانها نظرت الى الساعة لحظة ان اوقف المسلحون الشاحنة فوجدتها على تمام الرابعة. كان المسلحون يرتدون طواقي حمراً. اوقفوا الشاحنة التي وعد سائقها العائلات الاربع او الخمس بإيصالهم الى البقاع. لكنه، حين وصل بهم الى غاليري سمعان وجد الحاجز في انتظارهم. تظن ام تيسير ان الحاجز اوقفهم لان هوية فلسطينية سقطت من حقيبة زوجة ابنها تيسير. وحين بلغت ذلك الجزء من روايتها بدا لي انها تسرع او تعود كانها ما تزال في واحد من الإستجوابات التي خضعت لها لا بد، وكان عليها ان تنكر فيها فلسطينية كنتها.

الشاحنة التي كانت متوجهة الى البقاع، سيقت، بكل من فيها، الى المجلس الحربي، «مروراً بالاشرفية، وبالدورة حيث توقف السائق عند احدى المحطات ليزود شاحنته بالوقود». وهذا التفصيل الاخير تذكره ام تيسير لتزود روايتها بواقعة تظنها تضفي مصداقية عليها. فهي، شأن ذوي المهجرين جميعهم، تعتقد ان ثمة شيئاً غير مصدق في ما ترويه، وان عليها ان تقنع سامعيها بان ما ترويه حقيقي كله ومترابطة اجزاؤه.

في اقل من دقيقتين تستطيع ام تيسير ان تروي حكاية الإختطاف كاملة. الوقائع وحدها، من دون اي تعليق منها. في بدء الامر، في الشهور الاولى التي تلت الإختطاف، لم يكن عليها ان تزيد على الوقائع شيئاً، لا امام الصليب الاحمر ولا امام النائب صبحي ياغي الذي مدّ لها يد المساعدة، ولا امام العسكريين في اليرزة، حيث وزارة الدفاع، ولا امام ذوي المخطوفين الآخرين الذين، هم ايضاً، يذكرون الوقائع من غير تعليق، مثلها. ومع انقضاء الشهور والسنين تمكن هذا الإيجاز من ام تيسير، فباتت، اولاً، تسرده من دون ان يصاحب ذلك تذكر للمشاهد والامكنة، وباتت، ثانياً، عاجزة عن ذكر سواه. في بيتها ذي الحد الادنى من الاثاث، لم تستطع ان تقول شيئاً يذكر يتعدى وقائع الحادثة.

الى من تشتاقين اكثر يا ام تيسير؟ فتجيب، مثلما يجيب الاطفال حين يسالون عن محبتهم لاهلهم، انها تشتاق اليهم جميعاً. هكذا، كانها جمعتهم في رجل واحد. او كانها تخشى حقاً ان تبذل لواحدهم تذكراً يفيض عن تذكرها سواه. فتبدو في ذلك كانها تنسى ابناء وتتذكر ابناء.

لا تعرف ان تروي غير حادثة الإختطاف نفسها. ذلك، طبعاً، بتاثير ما يجري في الإستجوابات والمطالبات، لكن ايضاً بسبب شخصيتها الصامتة. في اجتماعات الجمعة التي يعقدونها تسمح نساء لانفسهن بالإستفاضة. تذكر احداهن مثلاً اشياء مما في قلبها، او تصف اخرى كيف تاتيها الخيالات حين ياتي الليل وتصير وحيدة في رقادها. او، في اثناء الإجتماع، تروح النساء تتبادل احاديث، منها ما لا يتصل بالغرض الذي اجتمعن بسببه. لكن ام تيسير لا تفعل ذلك. لا لانها لا تجيزه لنفسها بل لأنها لا تستطيعه. في وسط مثل هذا يستطيع الناس ايضاً ان يتميز بعضهم عن بعض، وان ينقسموا تبعاً لمواقعهم ومعارفهم وعاداتهم. كيف تعيشين يا ام تيسير، من اين تاتين بالمال لإعالة الاولاد؟ قالت انها تعمل في البيوت. في بيتين اثنين يتوزعان وقتها. وفي الإجتماع، ايام الجمعة، تحضر نساء من طبقات اجتماعية شتى، وهن يتساوين طبعاً في ما جئن من اجله، لكنهن يختلفن في اشياء كثيرة اخرى.

ثم ان الفقر المضيّق لغة صاحبه يبدو ايضاً كانه يضيّق خياله. في لقائيّ الإثنين مع ام تيسير خطر لي ان افكر انها لا تدرك فظاعة ما حلّ بها، لانها لا تستطيع توليد الخيالات الضرورية له. اي انني كدت افكر ان فقر ام تيسير ساعدها على رد الصدمة واحتمالها. قالت، مثلاً، بعد اسئلة متكررة، انها ما تزال تحتفظ في البيت بجميع اغراض المخطوفين الاربعة. «حتى مشاياتهم ما زالت هنا»، قالت.

غرفة من بيتها لم ادخلها، غرفة غير خالية من الاثاث مثلما هي خالية غرفة الجلوس التي ليس فيها الا كنباية واحدة قديمة، والصور الاربع على الجدران. فكرت، وانا هناك، ان طول الإقامة والعيش يمكن له الا يراكم اثاثاً او متاعاً. كان تكون المراة المتزوجة منذ ثلاثين سنة (تزوجت ام تيسير في ١٩٦٢) مثل امراة معدمة اخرى تزوجت لتوها.

كانت غرفة الإستقبال خالية الا من الكنباية البالية والصور الاربع، بسبب الفقر الذي لا تستحي به ام تيسير، لانه فات اوان ان تعتقد انه يمكن لها ان تكون في حال آخر. عند دخولي كانت تغسل بيديها غسيل الاولاد مقرفصة فوق الأرضية غير المبلطة. «مرّت عليّ في الحرب ايام صعبة»، تقول، مستثنية المصائب الخاصة التي ألمّت بها. اي ان ظروف العيش التي قوامها الماكل والملبس كانت صعبة. لم يذهب اولاد ابنها تيسير الى المدرسة. لم تجد ذلك ضرورياً، غير انها تستطيع ان تقول انها ربتهم تربية حسنة، لان محمد، الأكبر بينهم، يخجل حين يُكلّم فيخفض عينيه الى الارض ولا يجيب الا بما يُسال به. وقد احتجت الى ان اسال اسئلة كثيرة حتى اعرف من محمد كيف يتخيل اباه: طويلاً، حين ياتيه في المنام. يقف على العتبة بلباس كله ابيض ويقول لابنه: قم يا بني انا جئت. اما وجهه فلا يظهر واضحاً على رغم مثوله في الصورة على الحائط.

تعتقد ام تيسير انها ربّت الاولاد تربية حسنة لان اساس التربية، في ظنها، احترام الآخرين. اما «المستقبل»، الذي درج على قرنه بالمدرسة والتعلم، فليس مما يُستعد له بالتدبير والتهيئة، ما دام ان الأحداث تاتي مفاجئة ومن دون سابق توقع. هكذا انشطرت العائلة نصفين، بالصدفة، في ذلك اليوم من ١٩٨٢. وبالصدفة، ايضاً، قضت ابنتها بالقذيفة. وبالصدفة، كذلك، اصيب بيتها في حرب المخيمات.

لم ترسل الاولاد الى المدرسة، اذن، لا بسبب الإهمال، بل لكون ما يحدث فجاة، صاعقاً منقضاً، ينبغي انتظاره، او اهمال الحياة في اثناء انتظاره.

لهذا تخالف ام تيسير ما يراه اللبنانيون من انتهاء الحرب. قالت، حين سالتها عن ذلك: «الله اعلم»، ثم «الله يستر من الذي سيحدث».

ما تزال الحياة، منذ ١٩٨٢، تجري في اتجاه لا يُنتظر منه الا الاسوا. فمنذ ذلك التاريخ، اي في خلال الإحدى عشرة سنة، يصير تذكر المخطوفين اكثر حثاً على الحزن. ذلك الوقت الطويل لم يزودها نعمة النسيان بل فقدان الأمل.

في الاشهر الثلاثة التي تلت اختطافهم، كانت، وهي في البقاع، تعاني مرارة ابتعادهم، لكنها كانت في الوقت نفسه املة بعودتهم بالنظر الى قلة الزمن الفاصل بينها وبينهم. اما الآن، حين تقابل بين احتمال رجوعهم او بقائهم غائبين، لا تستند الا على اخبار سمعت آخرها منذ عشر سنوات. آنذاك، ذكر لها رجل اسمه ابو جورج، كان في اليرزة، اسماءهم جميعاً، بل وصف لها اشكالهم. وفي مرة ثانية طلب منها رجل آخر ان تحضر لهم البسة داخلية لم تعرف، في اليوم التالي، الى من تسلّمها. هذا حدث منذ ما يزيد على العشر سنوات، ولم يحدث شيء بعده.

لا تعرف ان كانوا احياء ام موتى. وعلى مدى سنوات طويلة كان عليها ان تختار بين الحقيقتين مستندة الى حدسها وحده، المتقلب المتغير مع تقلّب الايام وتغيرها. لهذا تجد ان عليها ان تسعى الى اشياء متناقضة في وقت واحد. فحين تشعر انهم احياء تلتزم الجبن الذي اوصاها به مقاتل التقته في المجلس الحربي قال لها: اذا سُئلت قولي ان من اخذهم جيش لبنان الحر لا القوات اللبنانية. واذ تشعر باستحالة عودتهم، تجد ان من واجبها قول الحقيقة حرمة لذكراهم، ولكي لا تظل مسؤوليتهم على مجهولين. هكذا تسمي اسماء بعض اصحابها بات في الدولة وبعضها الآخر في معارضة الدولة. وهنا ايضاً (تنتبه) يبدو امل عودتهم ضعيفاً جداً، ما دامت الدولة ومعارضتها معها في صف واحد.

لم يبق من المطالبين بعودة المخطوفين الا اهلهم فقط. لكن، وفي اي حال، لم يعرف هؤلاء، المخطوفون، مؤيدين حقيقيين طيلة السنوات المنقضية. فقضيتهم، شانها شان القصف العشوائي مثلاً، من عادي الحرب ومن عبثها، وهي مما اشترك في ارتكابه الجميع وهي لن تجد لها مطالباً او مناصراً لأن كل مطالب محتمل هو خاطف. احد الوزراء صرّح، قاطعاً الطريق على كل مطالبة، ان المخطوفين الذين كانوا لدى حزبه قُتلوا جميعهم. وهذه صراحة استحسنها الشعب اللبناني. خاطفون آخرون قالوا انهم لم يخطفوا احداً، بدليل ان الجيش اللبناني، بعد انتشاره في مناطقهم، لم يجد الا اسلحة.

انه السلام يعود ليرجع الناس الى ما كانوا عليه قبل الحرب. في وقت غير كثير ستكتمل عودة المهجرين الى مناطقهم، الا من مات منهم بالطبع. وفي وقت غير كثير ايضاً سيمنحون الجنسية لمن جنسيتهم «قيد الدرس». قلت لأم تيسير الذي هذا هو حالها. لم تكترث لذلك كثيراً، على رغم اقرارها بان الهوية الكاملة تجعل الامور اهون.

الدولة الجديدة تسعى الى تدبير احوال من ابقتهم الحرب احياء. حين دُعي ذوو المخطوفين الى معاودة الإجتماعات في ايام الجمعة، كان ذلك من اجل النظر في الأحوال الشخصية المترتبة على غيابهم. ذاك ان القوانين تحتاج الى جثث الميتين لكي يصير موتهم قانونياً. ودون ذلك تظل متوقفة مسائل انتقال الإرث ومسالة الزواج للزوجات ومسائل اخرى كثيرة. كان هذا غرض اجتماعهم الاول، كما ذكرت الصحف. لكن الأهل، اذا اجتمعوا الإجتماع الأول جعلوا، امام الكاميرات، يرددون الكلام نفسه الذي كانوا يقولونه قبل عشر سنوات. كانهم وحدهم، دون سائر اللبنانيين، يريدون ان تبقى الأمور منتظرة مؤجلة.

حسين داوود